

- 2..... قصة رشيد عباس بيضون
- 4..... في معرض فرانكفورت نقاش حاد حول الألماني الذي عاد إليه رشده! فرانكفورت: جمال الغيطاني
- 6..... رشيد الضعيف يعيد «الألماني إلى رشده» ويواخيم هلفر يوجه له «الضربة القاضية» مقال سمير جريس
- 9..... الفرصة الضائعة حسين الموزاني

قصة رشيد عباس بيضون

<عودة الالمانى الى رشده> عنوان يذكر من قريب او بعيد بعنوان كتاب كلاسيكي ايروتيكي يفيد كما تفيد الكتب العربية، من هذا الصنف، التربية الايروتىكية. احسب ان رشيد الضعيف اختاره وهو دار تماما بالعنوان القديم واختاره بقصد، واختاره بنوع من المعارضة للعنوان الاول. ليس كتاب الضعيف في التربية الايروتىكية لكنه تدريب على شيء آخر، ولبيان ذلك يحسن ان نعود الى كتابه. اما الكتاب فليس رواية خالصة وليس دراسة، ليس سيرة بحت ذاتية أو غير ذاتية وليس فقط خليطا من هذا وذاك. انه سرد أقل من رواية ومعالجة أقل من دراسة وسيرة غير شاملة، اما ما يربح من ذلك الأقل فهو الأدب. اذ قد يأتي الادب من اضعف السبل كما يأتي من اقواها، وكتاب رشيد باختصار ليس سيرة بقدر ما هو <تعليق> سيرة. انه يتبع سيرة ثانوية تماما بل هي مفرق في سيرة لا نعرف من يتكلم فيها الموضوع ام الذات. تخيل سيرة لما لا يحدث لك ولما ليس في حياتك فتكون رواية رشيد. التقى رشيد في برنامج الماني بروائي الماني مثلي. وكانت هذه بحد ذاتها تجربة. ليست المثلية حدثا في حياة رشيد الا بهذا المقدار، انها لا حياته ولا تجربته، مع ذلك فإنها تغدو مع زميله المثلي تجربة على نحو ما. لا اعرف اذا كانت هذه تجربة مع الآخر والمغاير هنا فحسب. ايقظ لقاء يواخيم هلفا برشيد ما لم يكن يظنه قائما في ذاته. انها قصة مع ما ليس هو ولا يمكن ان يكونه، قصته مع ما ليست قصته ولا حياته. انها قصة لا نظنها موجودة لأنها اذا وجدت تفرعت حياة المرء وتفرعت اناه الى مفارق لا يدري بها، بل بدا له انه في النهاية يعيش غير حياته ومع غير نفسه. لا اعرف اذا كان رشيد ذهب الى هذا الحد. لكنه نبش عن سيرة <مثلية> له. اي نبش عن تفكره وردوده حيال المثلية فوجد شيئا كثيرا، او وجد ما يكفي لهذا الحديث الذي ضمه في كتاب.

وقع صديقه الالمانى المثلي وهو في لبنان على ألمانية فعاشرها، وأنجبت منه فتاة. هنا ترتدي المثلية ثوبا معاكسا لا تنفي به نفسها، لكنها تذهب ابعد من نفسها. اما رشيد الذي احس انه عُدر، وأن صديقه الالمانى نقله الى حيث ما ليس يستطيع ان يحتويه في <لا حياته> المروية. فقد نقل شكواه الى عنوان كتابه <عودة الالمانى الى رشده>. عنوان تأري الى حد، رغم ان الرواية كلها كتبت بفضول حسابي وبروح اكتشاف شبه علمي. احسب ان لقاء كهذا لا يخلو من صراع. والعنوان دليل على ان رشيد ربح على الالمانى المثلي وحمله الى حضيرته.

اتفق رشيد ويواخيم على أن يروي رشيد من جهته ويروي الالمانى من جهته. لكن الالمانى بعد ان قرأ رشيد مترجما قرر ان يعلق على كتاب رشيد ويناقشه. كانت رواية رشيد وتعليق يواخيم مضمومين في كتاب واحد سيصدر عن <سوركام> واحدة من اهم الدور الالمانية، وقد اعتنت الدار بإصداره وبرزته في كاتالوغها.

حين وصلنا أنا ورشيد الى برلين كان احد همومه ان يرى الكتاب، وغاب صبحية عني ثم التقيتهم متجهما محيرا فقد علم ان يواخيم قطع روايته الى مقاطع ذيلها بتعليقه. هكذا غدا نصه مبعثرا، وليس هذا مما يريد كاتب، اي كاتب، لعمله. انه امر يجرح نرجسية الكاتب عميقا ويريه جسده متشظيا في مرآة محطمة. كان رشيد يستشير كل من يصادقه مرة واثنين وربما اكثر، ما كان اي من الاجوبة يلبيه حقا. كان في وسعه ان لا يوقع على العقد وينفض يده من الكتاب اجمالا، لكن هذه ايضا مجازفة وهذه ايضا تغيب لا يقل عن التنشيطي كابوسية. نصحوه جميعا بأن يمضي في الكتاب. قال له محمد اركون ان الكتاب هكذا اسير وأيسر للقارئ ولا غضاضة في ذلك ما دام الكتاب كاملا واحدا في اصله ولغته الاولى، كان رأيي ان الأمر اشبه بحادثة سير لا يد لرشيد فيها وما عليه الا تقبل نتائجها. قيل وقالوا لكن احدا لم ينصح رشيد بأن لا يوقع. فوقع على مسؤولية الجميع، بعد ان تلقى تعهدا من الدار بنشر الكتاب كاملا على موقع الدار الانترنت وان تتضمن النسخة المنشورة إشارة الى ذلك.

بعد التوقيع بقليل حضرته أوراق من الترجمة العربية للنص الالمانى وإذا به يقع على نص يقول فيه يواخيم انه زار بصحبته المتحف اليهودي، وان كل ما خطر له في المتحف ان يسأل عن عدد اليهود الذين

أبيدوا في الهولوكست، وحين علم انه 6 ملايين تعجب وسأل عن عدد اليهود فقيل له انهم ليسوا اكثر من 600 الف فزاد تعجبا من اين يخرج الستة ملايين من الستمئة الف مع كل الذين ذهبوا الى اسرائيل. تركه يواخيم لحساباته بعد ان أدرك ان هذا كل ما في استعداده واستعجل ان يذهب الى صديقه اليهودي ليبيكي بين ذراعيه، فقد كان أحد الاغراض الذي وجدها في جدار المحرقة من سنه، ما كان ليجادل رشيد في أمر خطير كهذا وأثر ان يكلمه في أشياء أسهل عليه وأكثر استعداداً لها كالجنس. ثم يذكر يواخيم ان رشيد أخذه الى معسكر الخيام حيث رأى نصيبين لشهيديين ماتا تحت التعذيب. رأى ذلك ولم يجد فيه إبادة، إلا ان رشيد لم يسأله في يوم ان يريه أنصبا تذكارية لمعتقلي وضحايا اليهود في برلين.

كان هذا نصا غربيا، انه يوحى من لا شيء بمعادة رشيد لليهود، بقدر من الحيلة الروائية يغدو سؤال رشيد عن الارقام لا حساسية بل وضغينة. وإذا قوبل سؤال رشيد ببكاء يواخيم بين ذراعي صديقه ظهر الفرق، ناهيك عن استطراد من لا شيء ايضا بأن رشيد لم يسأله ان يأخذه الى أنصاب تذكارية لمعتقلي اليهود فيما حمله الى معتقل الخيام ليريه أنصبا من هذا النوع. من لا شيء أو من تقويل روائي لأشياء محايدة تماما (سؤال عن الارقام) وبالأعيب بلاغية (مقابلة بين البكاء والسؤال الرقمي، بين أنصاب الخيام وعدم السؤال عن أنصاب مقابلة) يمكن الإيحاء بأن هذا العربي الذي هو رشيد الضعيف، بالطبع معاد لليهود. وسيكون ايضا معاديا للمثلية فهذا ما ينتظر من عربي. انها كليشيه العربي كما قال ميشائيل لكبيرغ وسيصدقها الجميع. هذه المرة لم تخطر لي نظرية <الحادثة>، هناك بوضوح تدبير واع. لا نعرف الالمانية لكن يمكننا الآن ان نفهم ان تعليق يواخيم نوع من ملاكمة. لقد جعل من الكتاب كتابه هو بعملية التقطيع، واختار ان يحوله الى معركة، وان يضرب حيث النتيجة مضمونة. ليس في الإيعاز بمعادة اليهود سوى توخي ربح سهل وأكد، ففي بلد كألمانيا لا يفكرون كثيرا في دمغة كهذه. ما ان يلوح أحد بها حتى تغدو حقيقة، فكيف إذا تعلق الامر بعربي.

أحسست شخصا بأني معني وبأن في سلوك يواخيم استصغارا لا يمكن تفسيره إلا بكليشيه العربي، لم إهون الامر كذلك على رشيد. كان هذا الإيعاز في التقليد الالمانى الثقافى اليوم فادحا فعلا. ميشائيل (صديقنا الالمانى ايضا) رآه فادحا ايضا. لكن أسوأ ما في الامر ان ما كتب كان من تهاويم فوقية يهودية أو ألمانية، كان فيه قدر من التمييز والتعالي والمحاكمة المسبقة احتج رشيد، لقد شعر بأنه غدر فعلا، ترك يواخيم لنفسه ان يفعل ما يريد. اختفى وراء الالمانية ليصلي رشيد حربا وتقليلا، جعل من الكتاب كتابه وجعل لنفسه الكلمة الاخيرة وفوق ذلك هذه الوصمة. ثمة كراهية واعتداء وتزوير ايضا. كنت واقفا في باحة الفندق حينما وافى يواخيم رشيد الذي كان بجانبي، تابع الاثنان نقاشاً حول الموضوع. لم أستطع أن أمسك بنفسى، وجدنتى أتدخل، قلت ليواخيم هذا افتراء، انك توغز من لا شيء لقضية كبيرة كمعادة اليهود. قال يواخيم ان الأدب الالمانى ليس أدب إيعاز، الأدب العربي أدب إيعاز. غلى غضبي، لم يكن في هذا الجواب سوى الاستصغار، كان الادب الالمانى (في رأي عجيب) أدب حقيقة فيما الإيعاز وهو إيحاء وربما اختلاق للأدب العربي. قلت له ماذا تعرف أنت عن الأدب العربي لتقول ذلك، أنا اعرف كبار الأدباء الالمان ولا اسمح لنفسى بمحاكمة كهذه. انه تمييز، انها نية خبيثة، تريد فقط ان تريح على رشيد وبقدارة، فوجئ يواخيم وسمعتة يقول قبل ان يذهب مع رشيد الى مؤتمر صحافي: أنا لست عنصرياً.

افاض رشيد في دفاعه في المؤتمر الصحافي، ولدى قراءة مشتركة في مهرجان الأدب العالمى، أما أنا فكان نصيبي أن أفسر في ندوة سياسية مع شريكي ميشائيل لكبيرغ بأن اسرائيل المعدودة في الغرب دولة حديثة وديموقراطية هي الدولة التي تدمر الديموقراطيتين الوحيدتين في المنطقة (لبنان وفلسطين)، وتعامل النواب المنتخبين ديموقراطيا كعصاة وتخطفهم في وضح النهار، وانها الاستعمار الاخير في العالم وانها تميز ضد ربع السكان العرب. كثيرون ناقشوا لكن، للعجب، لم يتهمني أحد بمعادة اليهود.

في معرض فرانكفورت نقاش حاد حول الألماني الذي عاد إليه رشده! فرانكفورت: جمال الغيطاني

شهد معرض فرانكفورت الدولي الذي اختتمت اعماله يوم الاحد الماضي ندوة ساخنة عقدت في المركز الدولي، الطرفان الاساسيان فيها الاديب اللبناني رشيد الضعيف، والاديب الألماني يواخيم هلفا المعروف بمثليته الجنسية، شارك الاثنان في برنامج الديوان الشرقي الذي يقوم علي استضافة أدبيين، احدهما عربي والآخر الماني، يقضي كل منهما ستة أسابيع في بلد الآخر، ويكتب كل منهما نصا يروي تجربته، في حالة رشيد ويواخيم، اتصل مدير البرنامج توماس هرتمان برشيد الضعيف ونبهه إلي ان يواخيم مثلي (أي شاذ)، وربما كانت هذه النقطة التي بدأ منها رشيد الضعيف كتابة تجربته التي حددت في كتاب عنوانه 'عودة الألماني إلي رشده' والكتاب نص أدبي جميل وطريف، غير ان هذا النص تلقاه الكاتب الألماني بضيق، وعند ترجمته إلي الألمانية وصدوره عن دار زوركان فوجيء رشيد بأن يواخيم لم يكتب نصا ولكنه كتب تعليقات تخللت كتاب رشيد ما أثار ضيق رشيد ودفعه إلي اصدار بيان شرح فيه ملاسبات الموضوع.

تلك هي المقدمات التي سبقت ظهور المشاركين في هذه الندوة، الكاتبين العربي والألماني، وتوماس هرتمان الصحفي والناشط السياسي منذ عام 1968، والدكتورة شيرين ابوالنجا الادبية والاستاذة الجامعية المعروفة، وكاتب هذه السطور. شيء مثير بالنسبة لنا، ان يقدم انسان نفسه علي انه مثلي، ويتحدث علي انه مثلي، فالمثليون موجودون في مجتمعاتنا ايضا، ولكنهم يخفون انفسهم، ويتظاهرون بعكس ما هم عليه أحيانا، لم يوجد في العالم العربي حتي الآن من يمتلك الشجاعة لكي يعلن أنه مثلي، لذلك كان مثيرا لي ان اشارك في هذه الندوة، بعد ان قرأت كتاب رشيد الضعيف، وتعليق يواخيم هلفا.

بدأ توماس هرتمان بتقديم المشاركين، وشرح ظروف مشاركة الكاتبين في برنامج الديوان الشرقي، ثم تحدث رشيد الضعيف الذي أكد أن الكتاب الصادر بالألمانية لايمثل حوارا، فقد كتب نصا متكاملا، علق عليه يواخيم مما أدي إلي تمزيق ما كتبه، كان الاتفاق ان يكتب كل منهما علي حدة، لقد قرأ يواخيم ما كتبه، ووافق علي نشره. طلب مني توماس هرتمان الحديث، فقلت انني قرأت نص رشيد الضعيف، وبداية فإن العنوان 'عودة الألماني إلي رشده' لايعني تقبل يواخيم كما هو عليه، بل كما يجب ان يكون من وجهة نظر رشيد، والعنوان منطلق من اقامة يواخيم لعلاقة مع صحفية المانية وانجابه طفلا منها، الملاحظة الثانية تتعلق بقول رشيد ان الفراش هو المكان الفعلي الذي يجري عليه الصراع بين الشرق والغرب، وهذا غير حقيقي، فالصراع يجري علي الارض، وهناك جيوش احتلال تسفك الدماء العربية، ونهب للثروات، وهناك تأجيج لحرب ثقافية بين الطرفين يهدد بعودة الانسانية إلي القرون الوسطي حيث الحروب الدينية، هناك المتطرفون في بلادنا الذين يعتبرون اليهود والنصارى كفارا، وهناك صمويل هنتنجتون والمحافظون الجدد، واخيرا تهجم بابا روما علي الاسلام. من ناحية أخرى لاحظت التعالي الذي اتسم به رد يواخيم هلفا، فهو يقيم ثقافة رشيد العربية، ويصف العربي بأنه الرجل الذي لايري في المرأة الغربية إلا هدفا سهلا، لقد خلا كتاب رشيد من التقويم، في الوقت الذي نجد تعليق يواخيم مليئا بالدروس والانطلاق من ان ثقافته تعد المرجعية الوحيدة التي يجب القياس عليها. تحدث رشيد عن العنوان الذي اكد انه يحوي سخريه ضمنية من المفاهيم السائدة، وانه لم يكن ناقدا ليواخيم او عدائيا، بل ان كثيرين من القراء تعاطفوا معه، فقد قدم صورته كانسان، يمارس حريته ويحاول دفع حدودها، وانه لم يخبر عن اسراره، لكنه اجاب بعدائية، لقد حاول الحوار ولكن الألماني لم يفهم الرسائل، اكثر من ذلك حاول خنق نصه بتعليقاته.

تحدث يواخيم فقال: ان نص رشيد يوجد كاملا في الكتاب المطبوع، وانه لم يرد بشكل عدائي، لقد سمح لنفسه بالتعليق لأن الكتاب عن حياته، ولأن كثيرا من المفاهيم السيئة تسود حول المثليين، وضرب مثلا بسجن المثليين في مصر خلال ما عرف بفضيحة السفينة كوين بوت، وقال ان المانيا تجاوزت مثل هذا الوضع.

هنا عقت علي يواخيم موضحا ان الشباب الذي قدم للمحاكمة في مصر لم يقدموا باعتبارهم شواذ، ولكنهم قدموا بتهمة ازدراء الاديان، غير ان الصحافة وسمتهم بالشذوذ لاسباب تتعلق بالاثارة الاعلامية، والذي لايعلمه الكثيرون انه لا يوجد نص في القانون المصري يعاقب علي الشذوذ.

قالت الدكتورة شيرين أبو النجا ان العنوان نفسه يثير الحساسية (تقصد عنوان رشيد) وأكدت انها تعتبر الكتاب رواية تتناص مع روايات أخرى، منها (موسم الهجرة إلي الشمال) للطيب صالح، ان كلا من الكاتبين محمل برؤي مسبقه عن الآخر، يواخيم حصر نفسه في الدفاع، قدم نفسه في مساحة ضيقة، كان يمكن ان يبني نصه علي فكرة هذه الثنائية، غير ان نصه جاء مغلقا، يدخل من اطار إلي آخر داخله، قال واكد علي معني: نحن متقدمون وانتم مراوغون، كما انه قصد ارهاب القاريء بسؤال محدد: هل انت مع المثلية أم ضدها؟ انه يقصد القاريء الالمانى أولا. ان ما يحيرني هو الرد علي نص رشيد في ثناياه وليس في نص منفصل، ايضا، لماذا قبل رشيد صدور الكتاب بهذا الوضع؟

علق يواخيم قائلا ان الكتاب صدر بالعربية، وحققت انتشارا واسعا، كان يجب ان يكتب كتابا بالعربية لكنه لم يستطع، ما يخص الحوار، فلاشك أن ثمة هوة قائمة، عندما نقرأ النص نجد فوارق فعلية، لم أفهم عند المشروعات المتبادلة، كان عند رشيد النية الحسنة، انني لا أنكر ذلك، لقد كانت هناك حدود واضحة وليست مجاملات، لقد كتبنا هذه النصوص للتطوير والتنوير يكون مؤلما أحيانا، أكد يواخيم أن نص رشيد موجود، انه لم يغيره، وهذا النص ليس رواية كما قالت الدكتورة شيرين أبو النجا، انه عن حياته، كل الشخصيات التي ورد ذكرها حقيقية فكيف يمكن ان نعتبرها رواية، وقال ان كلا منهما كتب قبل التطورات السياسية التي جرت خلال الشهور الاخيرة والتي تخللتها محاضرة البابا.

وجهت سؤالي إلي توماس هرتمان: لماذا حرص علي إخبار رشيد بمثلية يواخيم، ألم يحدد ذلك مسارا خاصا للتجربة؟ خاصة لرشيد؟

قال توماس ان يواخيم هلفا لا يخفي مثليته الجنسية، وخشيت من أي حساسيات، وحرصت علي ان يعرف رشيد، فربما كان ذلك أفضل له باعتباره عربيا، ان هذا الحوار ليس لاكتشاف العناصر المختلفة فقط، انما لتحديد عمق الهوية والاجواء الموجودة بين الطرفين، انني أشكر الكاتبين لجرأتهم.

عقب رشيد قائلا، انه لا يدري ماذا يقصد توماس بالجرأة؟، لقد كتب بالاتفاق معه وعرض عليه ونشرت باذن منه، ليس في الامر جرأة، طرحت مواضيع حقيقية، ان ما قام به يواخيم أمر سهل، أخذ كتابي وعلق عليه، هذا يسير جدا، سهل ان يهتم، فكل عربي عنده لايحب الثقافة، معادللسامية، ضد المرأة، كنت اتمني ان يكون الحوار صريحا خاصة من جانبه، فكل حوار صريح يجب ان يبدأ صعبا.

انتهت الندوة المثيرة والتي حضرها عدد كبير من الجمهور، وفي المساء اقامت دار النشر حفلا كبيرا لتوقيع الكتاب، حضره رشيد ويواخيم.

رشيد الضعيف يعيد «الألماني إلى رشده» ويواخيم هلفر يوجه له «الضربة القاضية» مقال سمير جريس

كاتبان لبناني وألماني في «مبارزة» غير متكافئة أثناء الندوة التي عقدت ضمن معرض فرانكفورت (2006) حول كتاب رشيد الضعيف "عودة الألماني إلى رشده" وكتاب يواخيم هلفر "العالم يتجه نحو المثلية الجنسية" (تصوير صموئيل شمعون) في أعقاب الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) 2001 ولد المشروع الألماني «ديوان الشرق والغرب» الذي يهدف إلى الحوار بين الأدباء الألمان وزملائهم في المنطقة العربية وإيران وتركيا. أصبح «الديوان» معروفاً لدينا بعد أن تبادل عدد من الكتاب العرب الزيارة مع زملائهم الألمان، وعقدت الندوات في القاهرة وبيروت والرباط وبرلين وميونخ وشتوتغارت. جمع المشروع حتى الآن بين أسماء معروفة في العالم العربي (إدوار الخراط وعباس بيضون ورسيد الضعيف وعبدالله زريقة وميرال الطحاوي على سبيل المثال)، وأخرى أقل شهرة في ألمانيا (مارتين موزيباخ وميشائيل كليبرغ ويواخيم هلفر وأولريكا دريسنر وماريكا بدروتيتش). وبغض النظر عن استثناءات قليلة، فإننا نلاحظ أن كل المشاركين العرب أكبر سناً - أحياناً بنحو ثلاثين سنة - من شركائهم الألمان. ألم يجد المنظمون متحمسين من الألمان سوى الشباب؟ وكيف يمكن أن يجري حوار أدبي من دون نصوص مترجمة؟ حول أي موضوعات يمكن أن يتبادل الكاتبان الحديث؟ الإجابة عن هذه الأسئلة قد يجدها القارئ العربي في كتاب رشيد الضعيف «عودة الألماني إلى رشده» (دار رياض الريس، 2006) والذي يتحدث فيه عن تجربته في «الديوان» ولقائه بالروائي الشاب يواخيم هلفر (المثلي الجنس).

كان باستطاعة يواخيم هلفر الاطلاع على «عزيزي السيد كواباتا» بالألمانية، و«تصطفل ميريل ستريب» و«المستبد» بالفرنسية، أما رشيد الضعيف فكان عليه الاكتفاء بفصل من إحدى روايات الكاتب الألماني الشاب، تُرجم إلى العربية خصيصاً للديوان. ولأن النص الأدبي لم يكن هو الأساس في التبادل الثقافي، لم يبق سوى الاهتمام بالشخص، بحياته وميوله وغرائزه. هذا هو ما فعله رشيد الضعيف في «عودة الألماني إلى رشده». لا شك في أن الكتاب يحاول أن يقترب بصدق من موضوع المثلية الجنسية الذي ما زال يمثل نوعاً من «التابو» في مجتمعاتنا العربية المحافظة، والجميل في نص الضعيف أنه لا يصدر أحكاماً أخلاقية ولا يدين، بل يحاول أن يفهم وأن يستكشف ذلك العالم الغريب تماماً على كاتب من بيئة «تحتفل بالذكورة وتحتفي بها». الكاتب اللبناني لا يكف عن طرح الأسئلة عن مدى قدرته على «قراءة» زميله في المشروع، «بأبجديته» التي يدرك أنها تختلف تماماً عن أبجدية الألماني. غير أن المزعج في «عودة الألماني إلى رشده» هو انحصار الكلام، بدءاً من العنوان، في ميول هلفر الجنسية، ثم عودة «الرشد» إليه بعد معاشرته صحافية ألمانية في بيروت. وعلى رغم أن «الجنون» عاد إلى الألماني بعودته إلى برلين، فإن الضعيف رأى في هذه الخبرة البيروتية «لحظة مفصلية في تاريخ كاتب ألماني»، ولذلك تحمس للكتابة عنها. نص الضعيف يناقش بصراحة عدداً من الأحكام النمطية الشائعة حول المثليين في العالم العربي، لكنه، وطوال 90 صفحة، لم يذكر كلمة واحدة عن زميله كاتباً وروائياً، لم يتحدث أبداً عن أدبه أو عن نقاشات فكرية خاضها. تم اختزال يواخيم هلفر في «المثلي» الذي لم تكن له أي أبعاد أخرى. هذا ما يتجلى بوضوح في أحد مشاهد الكتاب عندما يلتقي الضعيف بالمفكر المصري نصر حامد أبو زيد في برلين، ويحدثه عن «الديوان»، فيسأله أبو زيد عن اسم الكاتب الذي يعمل معه، فيجيبه الضعيف بكلمتين لا غير: «كاتب مثلي»!

لا يرى القارئ في نص الضعيف محاولة صادقة لتقبل هلفر كما هو، بل يلمس فرحة طاغية بـ«رجوع المثلي إلى رشده»، ما جعل الروائي اللبناني يحتفي بزميله ويولم له وليمة عرس بعد لقائه بامرأة. لم يكن تنويرياً تماماً، غير أنه اتسم بالصدق، ولم يخف أحكامه المسبقة ولا صور مجتمعه النمطية. عندما قرأ يواخيم هلفر ترجمة كتاب الضعيف قرر الرد، فالكتاب يدور أولاً وأخيراً حول شخصه، كما أن الجنس موضوع أساسي في أدب الكاتبين. لكن الروائي الألماني لم يكن بريئاً على الإطلاق في تعامله مع

نص زميله اللبناني. كان خبيث النية عندما اختار الشكل الذي خرج به الكتاب حديثاً إلى القارئ الألماني بعنوان: «لوطنه العالم» (من اللوطية)، عن دار «زوركامب» الشهيرة. لم يشأ هلفر أن يترك نص الضعيف كما هو ليرد عليه، بل قسمه إلى فقرات، وعقب على كل فقرة. كانت له الكلمة الأخيرة دائماً. هل الكتاب الألماني – على هذا النحو - «أكثر المساهمات جديّة في ميدان الصراع الأخلاقي بين الشرق والغرب»، كما يكتب الشاعر يواخيم سارتوريوس مُثنيّاً في تعقيبه؟ منذ السطر الأول يستخدم هلفر في رده لهجة ساخرة تصل إلى حد التهكم على زميله، معتبراً أن ما قام به الضعيف هو مجرد «تأدية واجب»، لأن المشروع يطلب من المشاركين فيه أن يسجلوا انطباعاتهم وتأملاتهم عن الرحلة. على رغم ذلك: فلنعتبر الكتاب حواراً، أو مناظرة، أو حتى مباراة. من القواعد الأساسية الواجب توافرها هو إعطاء الطرفين فرصة متكافئة للكلام والرد والتعقيب. يواخيم هلفر حرم الضعيف من هذا الحق. تناول نصه، قطع أوصاله كما يحلو له، وقام بالرد عليه. جاء رد هلفر مسهباً، في المعتاد أطول بكثير من النص الأصلي، والرد ينزع في مجمله إلى التعميم وإلقاء المحاضرات عن تخلف النظرة «التقليدية» إلى «الهوية الجنسية». انطلق الكاتب الألماني في حديثه من مرجعية واحدة، هي مرجعية الثقافة الأوروبية التي يؤمن هلفر بعالميتها، بينما يُحسب للضعيف أن نصه «مفتوح»، وأنه كان دائم التساؤل. هلفر يجيب على نحو قاطع. ورده يحفل بالإدانة والتعميمات. رشيد يكتب بتعاطف وحب، ويواخيم يسخر ويعلم. تحول الكتاب إلى صراع شرقي غربي حول المثلية الجنسية، وموقف «العرب» و «الثقافة العربية» منها. موضوع مهم ولا شك، لكنه كان يتطلب حواراً حقيقياً، لا محاضرات تُلقى بتعالٍ من كاتب لا يتيح للآخرين فرصة الرد. نص هلفر يحفل بتأملات وتفاصيل جديرة بالقراءة والنقاش (وللأسف لن تتاح للقارئ العربي فرصة الاطلاع على كتاب كهذا والتجادل حول أفكاره، فهو «أجراً» مما تتحمله ثقافتنا المعاصرة).

مشكلة أخرى في نص هلفر هي نزوعه إلى ترسيخ صورة «العربي الذكوري المتخلف»، «المضهد للمثليين والمرأة»، العربي الكاره للثقافة (الكاتب اللبناني في نص هلفر ينفر من زيارة المتاحف لأنها تصيبه بالإرهاق، أما الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية فيصيبه بالملل، وهو لا يتحدث مع زميله سوى عن الجنس!) هلفر يرسخ أيضاً – عن وعي؟ - صورة «العربي المعادي للسامية». في إحدى فقرات «عودة الألماني إلى رشده» يتحدث الضعيف عن زيارة قام بها مع هلفر إلى المتحف اليهودي، ويذكر أن زميله كان في ذلك اليوم متردداً، لم يوافق على اقتراح الضعيف بالعشاء معه، ثم عاد ووافق، ولكنه انصرف بعد العشاء مباشرة. ويفسر الضعيف ما حدث إلى أنه لم ينتبه إلى أن زميله في علاقة «زوجية» لها مقتضياتها، وأنه كان عليه أن يأخذ الأمر بالحسبان، وأرجع نسيانه إلى أن «العلاقة الحميمة بين رجلين، في ثقافتنا التلقائية، تكون في السر لا في العلن». (ص 60 من كتاب الضعيف) على هذه الفقرة يرد الروائي الألماني على النحو التالي (ص 145 وما بعدها من النص الألماني): صحيح أنه كان مشتت الانتباه في ذلك اليوم، لكن السبب يكمن في سلوك الضعيف في المتحف اليهودي الذي «ينم عن أمية لا يمكن تحملها». لماذا؟ لأن الضعيف سأل وهو يقف أمام إحدى اللوحات عن عدد اليهود الذين قُتلوا خلال النازية، فلما أجاب هلفر: ستة ملايين، تعجب الضعيف، وسأل زميله عن عدد اليهود في ألمانيا آنذاك. فأجاب هلفر: حوالي 600 ألف (في ألمانيا والنمسا معاً). فاستغرب الكاتب اللبناني الحديث عن ستة ملايين، لا سيما أن عدداً كبيراً منهم هاجر إلى إسرائيل.

لا شك في أن هذه النقطة تحديداً كانت تتطلب نقاشاً مستفيضاً بين أحد أبناء «جيل الجناة» في ألمانيا وأحد الكتاب العرب الذين اکتبوا بحروب إسرائيل على بلادهم. ولكن بدلاً من المحاجاة العقلية، يهرب هلفر إلى صور عاطفية، ويتحدث عن صديقه اليهودي وما عاناه من اضطهاد – ثم يضيف: «إذا كان هذا هو الوعي السياسي التاريخي (لرشيد الضعيف)، فالأفضل أن أتحدث معه في بقية لقاءاتنا عن موضوع لا يؤدي أحداً، مثل الجنس!» هكذا، لا مناقشة، لا جدال، بل اتهامات و «ضربة قاضية» تُوجه إلى الكاتب العربي في قلب برلين المثقلة بالذنب التاريخي تجاه اليهود.

السؤال الذي يطرح نفسه عندما يفرغ المرء من قراءة «لوطنه العالم»: لماذا رضي الكاتب اللبناني بهذا الشكل؟ على هذا السؤال رد الضعيف في برلين أنه فوجئ بالكتاب في المطبعة، فوافق مرغماً، وأن الاتفاق كان نشر التعقيب بعد النص الأصلي الكامل. لم يلتزم هلفر، فلماذا وافق الضعيف؟ وهل يرضى

كاتب ألماني بصدور كتابه مترجماً إلى العربية ومُعلقاً عليه بهذا الشكل؟ وهل الكتاب في صورته الألمانية يخدم بالفعل «الحوار بين الثقافات»؟ (عن الحياة).

الفرصة الضائعة حسين الموزاني

حول لقاء الكاتبين الألماني يواخيم هلفر و اللبناني رشيد الضعيف لم تكن الاتصالات بين الشرق العربي والغرب مقتصرةً فقط على النزاعات المسلحة والغزوات التاريخية مثل الفتوحات الإسلامية أو الحروب الصليبية أو غزوات الإسكندر المقدوني وهنريكل و نابليون أو جورج دبليو بوش، إنما كانت تتعداها أحياناً إلى مستويات أخرى دبلوماسية وثقافية ودينية مختلفة. فهناك بلا شك لقاءات من طراز آخر ساهم فيها التجار الفنيقيون المهرة والرحالة العرب، بالإضافة إلى العلاقة المتميزة بين الخليفة العباسي هارون الرشيد و كارل الكبير ملك الإفرنج في القرون الوسطى.

والآن، وفي زمن الأرهاب الشامل والشكوك المتبادلة وانعدام قنوات التفاهم بين العالمين الغربي والعربي نرى من يحاول، وبالذات في هذا الحقبة الحرجة، أن يتابع تلك التقاليد الإنسانية العريقة. ولعلّ المشاريع والبرامج الثقافية العديدة التي تقدمها دول الاتحاد الأوروبي، ومنها ألمانيا، بغية دعم التبادل الثقافي بين المتقنين العرب والألمان أفضل دليل على رغبة الغرب في التعرف على الطرف الآخر، لأننا نكاد لانرى مبادرة في هذا السياق تنطلق من الجانب العربي.

مشروع "الديوان"

وبهذا المعنى فإن ما يسمى بـ"الديوان الشرقي-الغربي" المدعوم من قبل معهد غوته و"برلينر فستشبيله"، المهرجانات البرلينية، التي يشرف عليها الشاعر الألماني يواخيم زارتوريوس و"فيزنشافتسكوليفغ"، كلية العلوم البرلينية، ينطوي ضمن هذه المشاريع الثقافية. ويجمع هذا البرنامج بين أديبين، عربي وألماني، يمضي كلّ منهما بضعة أسابيع في وطن زميله ثم يدون معايشته وانطباعاته في كتاب مشترك. وعادة ما يغلب طابع الملاحظات والمشاهدات العامة ومحاولات التقرب من ثقافة الآخر على هذه الكتابات ذات النفحة الأدبية أحياناً.

لكننا يمكن أن نعتبر الكتاب الأخير الذي جمع بين "تقارير" الكاتب اللبناني رشيد الضعيف وتعليقات زميله الألماني يواخيم هلفر على هذه التقارير حالة استثنائية. وصدر هذا الكتاب بالألمانية تحت عنوان غير مألوف هو "مثلية"، أو "خولنة العالم" *Die Verschwulung der Welt. وهو لا يحتوي في منتهى إلا على الملاحظات والاحكام الشخصية الطابع التي لا تسعى إلى الاقتراب من الآخر أو المقاربة أو حتى المكاشفة، بقدر ما تهدف إلى وضع شخصية الآخر موضع الشك والتساؤل. فرشيد الضعيف على سبيل المثال لا يعالج في كتابه الصادر باللغة العربية تحت عنوان "عودة الألماني إلى رشده" ** وهو عنوان مقتبس عن الكتاب الأباحي "رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه" للمولى أحمد بن سلمان، هو اسم مستعار، إلا قضية واحدة وهي "المثلية الجنسية" Homosexualität لزميله الألماني هلفر. فالضعيف لم يحدثنا عن كتابات هلفر ولا عن نظراته للأدب الألماني أو الحياة الثقافية هنا بصورة عامة، إنما اقتصر حديثه على مثلية هذا الكاتب وشمزازه المضمرة والمعلن أحياناً من هذه الظاهرة "الشاذة" وعلى كيفية التخلص منها.

في حين شرع هلفر، ومنذ البداية، على تفنيد الآراء والملاحظات التي دونها الضعيف فقرة إثر أخرى، بعد أن جزأ كتاب الضعيف إلى مقاطع، ليضع عليها تعليقاته، دون أن يتيح الفرصة بعد ذلك إلى الضعيف ليعلق بدوره على قراءة هلفر لنصّه.

الاصطدام العربي الألماني

يقول هلفر "إنّ احتقار المثليين في العالم العربي لا ينفصل عن احتقار المرأة، بل أن هذا الأمر يتصاعد ليصل إلى حدّ كره الخائن الذي يصطف إلى جانب المحتقرين، وذلك على الرغم من أن الله خلقه حقيراً"، ويؤكد في موضع آخر على أن المثليّ الجنسيّ يستفز الأخلاقية العربية القائمة على "الاندفاع الكيمائيّ الحيويّ الموجه والمستمد من مملكة الحيوان". لكنه لم يكتف بذلك إنما يوسع من موضوع النقاش مع الضعيف ليجعله يشتمل على قضية في غاية الحساسية بالنسبة للسياسة والرأي العام الألمانيين وهي قضية العداء للسامية والموقف من اليهود. فبعد زيارة مشتركة إلى "المتحف اليهودي" في برلين والتي لم يتعرض الضعيف إلى تفاصيلها قط، نرى يواخيم هلفر يجعل من رشيد الضعيف رجلاً جاهلاً وأمياً "لا تحتمل أميته"، لمجرد أنه تساءل بعد تلك الزيارة عن عدد اليهود الألمان الذين ذهبوا ضحية الإبادة الجماعية وعدد الناجين منهم، مبدياً دهشته من ضخامة العدد، ستة ملايين ضحية. وبدلاً من أن يعطيه إجابة وافية عن هذا الأمر المهم نجد هلفر يلجأ إلى التعميم من جديد، فيقول ساخراً بأنه كشف لزميله "أكذوبة الدعاية الصهيونية".

وجاءت هذه الفقرة في الواقع مفتعلة تماماً ولم يكن لها ما يبررها في سياق النصّ، لاسيما وأن الضعيف لم ينكر هذا الرقم ولم يظهر أي نوع من العداء للسامية، بل سعى على العكس من ذلك إلى التقرب من شريك هلفر، أي زوجه المثليّ، اليهودي البرليني "نون" ذي السبعين عاماً.

ثم إنّ الكاتب الألماني لم يبد أي رغبة في معرفة الأوضاع العامة في لبنان، وبالأخص فيما يتعلّق بالوضع الثقافي، أو أسباب الحرب الأهلية، أو الخلافات السائدة بين الأطراف السياسية هناك. وكذلك لم يبد رشيد الضعيف اهتماماً يذكر بالأدب والفكر الألمانيين، ولم يستشف مما كتبه بأنه مطلع على الثقافة الألمانية، لا سيما المعاصرة منها، إنما تحولت ألمانيا بالنسبة له إلى مجرد "خلفية" غائمة اختزلها بمثلية هلفر.

وفي الأخير نكتشف بأن هلفر الذي دافع في البدء، وبإستماته، عن ميله الجنسيّ يتنكر لهذا الميل فجأةً فيقترن بامرأة ألمانية مقيمة بلبنان ثم ينجب منها بنتاً. وبهذا المعنى فإنه عاد أخيراً إلى "رشده"، أي إلى رجولته التي طغت عليها أنوثة المجتمع الأوربي المتنامية، فأنتنتها من وجهة نظر الضعيف.

نشرت هذه المراجعة باللغة الألمانية في جريدة زودويتشه تسايتونغ بتاريخ 2006/11/15

* Joachim Helfer, Rashid al-Daif: Die Verschulung der Welt, aus dem Arabischen von Günther Orth, mit einem Nachwort von Joachim Sartorius. Edition Suhrkamp 2006, Taschenbuch 199 S.

**رشيد الضعيف: عودة الألماني إلى رشده، دار رياض الرئيس، بيروت 2006، 190 ص.

